فـلا بُدَّ مـن علم ، لأن الذى يصـنع صَنْعَـة لا بُـدَّ أنْ يعـرفَ ما يُصلحهـا وما يُفسِدها ، وذلك يتطلَّب قـدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

لو نظرنا إلى الـكون من حـولنا لوجـدنا أننا لا نتـسـاوى إلا فى شىء واحد فـقط ، هو أننا عبيدٌ لله .. نحن سواسيـة فى هذه فقط ، ومـا دون ذلك فنحن مـخـتلفـون فـيـه ، تخـتلف ألوانـنا ، تخـتلف أجسامنا .. صورنا .. مواهبنا .. أرزاقنا .

والعجيـب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفـاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثـلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلـبتما دجـاجة .. أنت بطبيـعتك تحب صدر الدجـاجة وصديقك يحب جزءاً آخـر منها .. هذا خلاف .. فساعة أن يأتى الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخـذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خـلاف أدى إلى وفاق .. فلو فـرضنا أن كلانـا يحب الصدر مـثـلاً .. هذا وفاق قـد يؤدى إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أيُنا يأخذ الصدر ؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين فى أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مـثـلاً كان هو المـهندس الذى يرسـم ، والبنّاء الذى يبنى ، والعامل الذى يحـمل ، والنجار والحداد والسباك .. الـخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانـه نثر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكى يظل كل منهم محـتاجاً إلى غيـره فيما ليس عنده من مـواهب ، وبهذا يتم التكامل فى الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَـيْن الوفاق ، وهو آية من آياته سبـحانه وحكمة أرادها الخالق جَلَّ وعَلا ، فقال :

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود]

فقد خلقنا هكذا .

وإلاَّ فلو اتحدنا واتفقنا فى المواهب ، فهل يعـقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمَنْ يبنى ؟ ومَنْ يزرع ؟ومَنْ يصنع ؟.. الخ

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فِي الرِّزْقِ .. ﴿٧١﴾﴾ [النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحـية واحـدة ، فهو عنـدهم المال ، فهذا غنىّ وهذا فـقير .. والحقيقـة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ

شىء تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَن الفاضل ومَن المفضول ، فكلمة ـ بَعْض ـ مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاض فاضل فى ناحية ، ومفضول فى ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إذن : فكلٌ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر فى الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة فى واحد وكانت مفقودة فى الآخر فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القوىُّ يعمل للضعيف الذى لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل فى قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتي هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضّلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطي دون مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هي التي تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذي ربط المجتمع ؟ هي الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً في ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء في الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغني صاحب العظمة والجاه .. والذي قد تُلْجِئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً في مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضي له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضي مثل هذه المهام البسيطة في المنزل .. وهو في نفس الوقت فاضل على الباشا في هذا الشيء .

فالجميع - إذن - في الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ في الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط في المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية في آية أخرى في قوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢) ﴾ [الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسخَّر للغنيّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر .. فالفقير مُسخَّر للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى مُسخَّر للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعر العربى يقول :

النَّاسُ لِلْناس مِنْ بَدْوٍ وحاضرة ... بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونضرب هنا مثلاً بأخسِّ الحرف فى عُرْف الناس - وإنْ كانت الحِرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .. فالخِسَّة فى العاطل الأخرق الذى لا يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التى يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشترى علبة الورنيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

مَنْ منّا يُسخّـر الآخر ؟! كُلٌّ منا مُســخَّر للآخر ، أنت مُســخَّر لى فيما تتقنه ، وأنا مُسخَّر لك فيما أتقنه .. هذه حكمة الله فى خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحــانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعــيةً فينا .. يعنى هذا لكذا وهذا لكذا .. لا .. الذى يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهـما كان حـقيراً فى نظر الناس ، ثم يُـتقن هذا العمل ويجـتهد فـيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدرى فى هذا العمل لأرفعنّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق ..

وفعــلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيـرون إليه : كان شـيالاً .. كـان أجيـراً .. نعم كـان .. لكنه رَضِى بمـا قسم الله وأتقن وأجـاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقـولون : مَنْ عـمل بإخـلاص فى أىِّ عـمل عـشـر سنين يُسيِّـده الله بقية عـمره ، ومَنْ عمل بإخـلاص عشرين سنة يُسـيِّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّـد الله أحفاده .. لا شىء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فــينا أعْلـى وأدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلـى من الناس ، نحن سواســية ، ولكن منَّا من يُتْـقن عمله ، ومنَّا مَنْ لا يتـقن عمله ؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرىء ما يُحسنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة فى الإنسان ، ولكن انظر إلـى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ فى تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوى مجموع كُلّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة .. الخ لوجدت نصيب كُلّ منّا فى نهاية المعادلة يساوى نصيب الآخر ، فأنت تزيد عنى فى القوة ، وأنا أزيد عنك فى العلم ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدٌ لله ، ليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. (٧١) ﴾

[النحل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله بالرزق ، فأخذه ووزّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن فى الآية إقامةٌ للحجة عليهم ، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى(١) .

وكأن القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّل بعضكم فى

---

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. (٧١) ﴾ [النحل] قال القرطبى فى تفسيره (٣٨٦٨/٥) : « أى : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم ، فتجعلون لى ولداً من عبيدى » .

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزَّعه على عبيده ؟ .. أبداً .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله فى العبودية والألوهية وحقَّه فى الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه للأصنام والأوثان ؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم]

أى : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضَّلَنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطى أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطى أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ

تُقرضــه ، وكأنه سبحــانه يحترم عملك ومــجهودك ، ويحتــرم ملكيتك الخاصة التـى وهبها لَك .. فيقــول : أقرضنى . لعلمه سبـحانه بمكانة المال فى النفوس ، وحرْص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقترض ، فجعل القرض له سبحانه لتثقَ أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : بعد أنْ أنعم الله عليــهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أنْ ينثروه على الغــير ، جـحـدوا هذه النعـمة ، وأنكروا فَـضْل الله ، وجـعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حَقَّ الله فــى العبودية والألوهية وأعطوْهُ للأصنام والأوثان ، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

الحق سبـحانه فى الآية الســابقة قنَّن لنا قضــية القـمة ـ قضــية العقيدة ـ فى أننا لا نعطى شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعـة وغيرها ، لا نعطيهـا لغيره سبحـانه .. وإذا صَحَّتْ هذه القضية العَقَدية صَحَّتْ كل قضايا الكون .



ثم بيَّن سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجة له ، ليتم التناسل والتكاثر .. إذ إن استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فنأكل ونشرب فنستبقى الحياة ، فبعد أنْ تحدّث عن استبقاء الحياة بالرزق فى الآية السابقة ذكر :

الأمر الثانى : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٧٢) ﴾ [النحل]

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعنى الرجل فقط ، بل يعنى الرجل والمرأة ؛ لأن كلمة (زوج) تُطلَق على واحد له نظير من مثله ، فكلٌّ واحد منهما زَوْج .. الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتُطلق ـ إذن ـ على مُفْرد ، لكن له نظير من مثله .

و ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٧٢) ﴾ [النحل]

أى : من نَفْس واحدة ، كما قال فى آية أخرى :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (٦) ﴾ [الزمر]

يعنى : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم ـ عليهما السلام .

أو : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا .. (١) ﴾ [النساء]

أى : من جنسها ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة]

أى : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين .. مَن اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضلع آدم أى : منه ، من بعضه فلا مانع ، ومَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خَلْقاً مستقلاً ، ثم زَاوَج بينهما بالزواج فلا مانع .. فالأول على معنى البَعْضية ، والثانى على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمةُ آحاداً .. كما لو قال المعلم لتلاميذه : أَخْرجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جَمْع . وكتبهم جمع ، فهل سيُخرج كل تلميذ كُتب الآخرين ؟! .. لا .. بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط .. إذن : القسمة هنا تقتضى آحاداً .. وكذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

أى : خلق لكل منكم زَوْجاً .

ولكى نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْق بدأ بآدم عليه السلام ـ نردُّ الأشياء إلى الماضى ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر فى المستقبل يتناقص فى الماضى .. فمثلاً سُكَّان العالم اليوم أكثر من العام الماضى .. وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا فى الماضى ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام ـ ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..(١) ﴾ [النساء]

كلام صحيح يؤيّده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أن جعل هذا الزوج من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأن إلْفَ الإنسان وأنْسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّر الحال إذا جعل الله لنا أزواجاً من غير جنسنا !! كيف يكون ؟!

هذا الزوج اشترك معنا فى أشياء ، واختلف عنّا فى شىء واحد ، اتفقنا فى أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينان وأذنان .. يدان ورجْلان .. الخ . وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنْس والألْفة .

واختلفنا فى شىء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرَّقنا النوع لِيتمّ بذلك التكامل الذى أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثَدْى صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع .. فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٧٢﴾﴾ [النحل]

ليزداد الإلْف والمحبة والأُنْس والمودّة بينكم ؛ ولذلك نجد فى

قصة سيدنا سليمان عليه السلام ـ والهدهد ، حينما تفقَّد الطير وعرف غياب الهدهد قال :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل]

وهذا سلطان الملْك الذى أعطاه الله لسليمان .. قالوا فى :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١) ﴾ [النمل]

أى : يضعه فى غير جنْسه .. إذن : وَضْعه فى غير جنسه نوع من العذاب[1] .. وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفى الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاث لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته .. فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبة التى تُمسك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قدْراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه .. يرحم ضَعْفه .. يرحم مرضه .. وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف فى رحلة الحياة .

---

(١) ومن أنواع العذاب أيضاً ما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٠) والسيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٤٩) أن ينتف ريشه ويتركه للنمل يأكله .

فإذا ما استنفدنا هذه المـراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سكَن ولا مودّة ، ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحـانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك جعله ربنا سبـحانه أبغض الحلال[1]، حتى لا نقدم عليه إلا مُضطرِّين مُجْبرين .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢) ﴾ [النحل]

البنون هم الحلقـة الأولى لاستـبقـاء الحيـاة ، والحفَـدة وهم ولَدُ الولد ، هم الحلقة الـثانية لاستـبقاء الحـياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبْـعه يحب الحـياة ويكره المـوت ، وهو يراه كل يوم يحـصد النفـوس من حَوْله .. فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقَّن أن الحياة تفوته فى نفســه أراد أنْ يستبقـيَها فى ولَده .. ومن هنا جاء حُبُّ الكثـيرين منَّا ، للذكور الذين يُمثِّلون امتداداً للآباء .

فـإذا ما رزقـه الله الأبناء ، وضـمن له الجـيل الأول تطلّع إلى أنْ يرى أبناء الأبناء ؛ ليـسـتـبـقى الحـيـاة له ولولده من بعـده ؛ ولذلك فالشاعر الذى يخاطب ابنه يقول له :

أبُنَىّ .. يَا أنَا بَعْدَمَا أقْضِى[2]

---

(١) عن ابن عـمـر رضى الله عنهـمـا عن النبى ﷺ قـال : « أبغض الحـلال إلى الله عـز وجل الطلاق » . أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٧٨) وابن ماجة فى سننه (٢٠١٨) .

(٢) قضى الرجل نحـبه : استوفى أجله.ومـات . قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] مات أو استشهد . [القاموس القويم ٢/١٢٢] .

وهذه هى نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذِكْر لهم بعد مـوتهم .. وكأن اسمه موصولٌ لا ينتهى .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢)﴾ [النحل]

تدلُّنا على ضرورة الحِرص على اندمـاج الأجيال .. زوجين ، ثم أبناء وحـفدة .. فـما فـائدة اندمـاج الأجيـال ؟ مـا فائدة المـعاصـرة والمخالطة بين الجدّ وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليـد الصـغيـر يبـدأ عنده الإدراك بمـجرد أنْ تعـملَ وسائل الإدراك عنده ، فـيبـدأ يلتقط مـمَّنْ حوله ويتعلّم مـنهم .. فإذا كان له إخوة أكبر منه تعلّم منهم مـثلاً بابا .. ماما .. فإذا لم يكُنْ له إخوة نُعلّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الـطفل الثـانـى أذكى من الأول ، والثـالث أذكى من الثـانى .. وهكذا لأنه يأخـذ مـمَّنْ قـبله وممَّـنْ حوله ، فـيـزداد بذلك إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصـور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجـاء الحفـيد الذى يعـاصر الجيلين ؛ جيل الأب وجيل الجدّ ، يشبّ الصغير فى أحضانهما ، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه فى حركة الحياة وسَعْيه للرزق .

فى حـين أنه يأخذ من جَـدِّه القيم الـدينية حـيث الجد فى البـيت باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فـأقبل على الطاعة والعبادة .. فيسمع منه الصـغـيـر قـراءة القـرآن .. مـتى يؤذن للظهـر .. يا ولد هات

المصحف .. يا ولد هات السجادة لأصلى ، إلى غير هذه من الكلمات التى يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لوناً من النشاط والحركة فى جيل أبيه ، ويلتقط لوناً من القيم فى جيل جَدِّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً فى تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٧٢) ﴾ [النحل]

الطيبات فى الرزق الذى جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفى الزواج الذى جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾ [النحل]

الباطل : هو الأصنام التى اتخذوها من دون الله .

وفى الآية استفهام للتعجُّب والإنكار .. كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم فى البَدْء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً .. وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقى حياتكم ، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقى نوعكم ، وجعلكم فى نعمة ورفاهية .. خلقكم من عدَم ، وأمدّكم من عُدم .

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع .. وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكم .. فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه .. وهذا كُسِر يحتاج لمن يُصلحه .. انقل الإله .. ضَع الإله فى مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضى تنفيذ الأمر واجتناب النهى .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهى فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة فى الحياة تُعين على عبادة فهى عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدِّى فرض الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يدٌ شاركتْ فيه منذ كان حبةً قمح تلقى فى الأرض إلى أنْ أصبحَ رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدّ ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلّى ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به .. كُلّ مَنْ أسهم فى زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شىء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شىء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝ ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستهلك .. ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتى ثمرتها فى ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهى محلّ الاهتمام .. وكذلك لم يَقُلْ : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيعَ ، ولكن المشترى قد يشترى وهو

كاره .. فأتى القرآن بأدقّ شىء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أُمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب[1] الأرض :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ..(١٠) ﴾ [الجمعة]

فقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التى يُؤْثِرونها على الله .. وهى الأصنام .. فالله سبحانه الذى خلقهم ورزقهم من الطيبات ، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله .. فالذى لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته ، وعبادة لصفات الذات فى معطياتها ، فَمنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضى تنفيذ الأوامر واجتناب النواهى .. فكيف تكون العبادة إذن فى حق هذه الأصنام التى اتخذوها ؟! كيف تعبدونها وهى لم تأمركم بشىء ولم تنهكُمْ عن شىء ؟! .

---

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهرى : أشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال : فى جبالها . لأن قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً .. (١٥) ﴾ [الملك] معناه : سهَّل لكم السلوك فيها . فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل . [لسان العرب ـ مادة : نكب] .

وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطى الأصنام ـ أو غيرها من معبوداتكم ـ لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتديّن غريزة فى النفس يلجأ إليها الإنسان فى وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذى يجب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضى مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان فى النفوس ويقتضى تكليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحَّك إنسان فى إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشىء أو ينهى عن شىء ! ما أسهل أن يُرضى فى نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألاَّ تنسوا أن هذا الإله الذى ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه فى شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضراً .

لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة .. هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع .

فجـاء مسـيلمة الكذاب وأراد أن يُسـهِّل على الناس التكليف فـقال بإسقاط الصـلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الـزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كـثيراً من المغفلين الذين يَضيـقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .

وهكذا وجـدنا لهؤلاء الكذابين أنـصاراً يُؤيِّدونهم ويُناصـرونهم .. ولكن سـرعان مـا تتكشف الحقـائق ، ويقف هؤلاء المـخدوعـون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا .. (٧٣) ﴾ [النحل]

نلاحظ في هذه الآية نَوْعاً من الارتقـاء في الاستدلال على بطلان عـبـادة الأصنام ؛ ذلـك لأن الحق تبـارك وتعـالى قـال عـنهم في آية أخرى :

﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

فنفى عنهم القـدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلـوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيـه مِعْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .

فلمـا نفـى عنهم القـدرة علـى الخَلْق أراد هنـا أنْ يتـرقَّى في الاسـتدلال ، فنـفى عنهم مـجـرد أنْ يملـكوا ، فقـد يمـلك الواحـد ما لا يخلقه ، فتُقرِّر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتى رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة لتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقى المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فانبت لنا نبات الأرض ..

ونُوضِّح ذلك فنقول : هَبْ أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع فى يوم من الأيام .. هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن فى حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذى يحفظ لك حياتك فى هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذى رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أى : أقلّ ما يُقَال له شىء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

أى : لا يملكون لهم رِزْقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً .. وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُستأنفَ فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .

ولذلك ؛ نجد هؤلاء الذين يُحِبّون أنْ يجدوا فى القرآن مَأْخَذاً يجادلون فى قوله تعالى[1] :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يروْن فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتُم .. ففى السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] .